جاذبية الأرثوذكسيَّة

بقلم المعلم الانطاكي الشماس

اسبيرو جبور

مَن يتتبَّع تاريخ الكنيسة الأرثوذكسية يُصابُ بشيءٍ من الذهول بسبب قُدرتِها على تجاوز أزمات التاريخ الحادة. ففي القرون الثمانية الأولى تعرَّضت الى هزّاتٍ عنيفة جداً وإنتهت في العام 843 برفع الأيقونات على وقت الأمبراطورة ثيودورا. حرب الأيقونات كلّفت الكنيسة متاعب لا تُعَدُّ ولا تُحصى من إضطهاداتٍ وسرِقات وإستيلاء على الأموال وإستشهاد. تتابعت الأحداث شديدةً فيما بعد وذلك بسبب العلاقات الخارجية ومع ذلك، صمَدت الكنيسة الأرثوذكسية.

في القرن الثالث عشر تعرَّضت الكنيسة الأرثوذكسية لمتاعب هائلة أفقرَتها مالياً وأضعَفتها سياسياً . في القرن الرابع عشر تعرَّضت الكنيسة لهجماتٍ متنوعة وظهر القديس غريغوريوس بالاماس يحمل إيمان ذاع صيتُه في كل العالم الأرثوذكسي فتبنَّته الكنيسة الأرثوذكسية.

www.alsiraj.org السراج الأرثوذكسي

في القرن الخامس عشر تعرّضت الكنيسة الأرثوذكسية لصعوباتٍ قاسية جداً من كل جهة ومع ذلك صَمدَت. كان التَتر قد إحتلوا روسيا فأذلّوها وأهانوها جداً ومع ذلك صمَدت فوق هذه الصعوبات فتحمّلت من نكبات الدهر ما تحمّلَت، وقدّمت من الشهداء ما قدَّمت حتى بلغَ عدد شهدائها في القرن العشرين أكثر من 45 مليون، وفي كلِّ ذلك كان الصمود هو طبيعة الكنيسة الأرثوذكسية.

ما إنهارت وما إنهزمت بل صمَدت في وجه الصعوبات والنكبات وقدّمت الشهداء والقدِّيسين والآباء العظام.

قفزت روسيا في القرن التاسع عشر الى صدارة عالمية في اللاهوت والأدب والفلسفة، فسبَق الأدب الروسي الآداب العالمية وسبقت الكنيسة الروسية سواها بما قدّمتهُ من رهبانٍ عِظام. فكان دير أوبتينا محجّ رجال اللاهوت والفكر وكان محجةً لخوميا كوس العظيم الذي تزعّم في القرن التاسع عشر التيارات الفلسفية واللاهوتية وحتى الإجتماعية والسياسية. نذكر ايضاً ثيوفانوس الحبيس الذي كان رئيساً لأكاديمية بطرسبرغ، فهو إستقال وتنسّك وترك لنا 164 كتاباً وهذا هو رقم قياسي في تاريخ العالم كلِّه.

www.alsirat.org الصراط الأرثوذكسي

في روسيا اليوم، حملةٌ كبيرة لبناء الكنائس والأديرة وللتقدُّم اللاهوتي والرجوع الى المصادر الآبائية اليونانية الأصلية كما صرَّح الأسقف الجليل هيلاريون مساعد بطريرك موسكو صاحب القداسة كيريلس الذي هو من دُعاة الرجوع الى المصادر الآبائية الأصلية. الرئيس بوتين زار جبل آثوس وصرَّح هناك أننا مرتبطون بهذا الجبل أي أن الروحانية الروسية مرتبطة بروحانية جبل آثوس، مرتبطة بغريغوريوس بالامس، غريغوريوس السينائي ونيقوديمس الآثوسي، ولا ننسى أن ظهور الفيلوكاليا على يد نيقوديمس الآثوسي كان ثورةً روحية في العالم الأرثوذكسي وفي غيره أيضاً وهي مُترجمة اليوم الى لغاتٍ عديدة.

في رومانيا الكنيسة والشعب في تلاحمٍ كبير. هذا التحسُّس الأرثوذكسي العام له أسبابهُ. ولا أنسى يوغسلافيا وبطريركها العظيم المرحوم بولس واللاهوتي الكبير بوبوفيتش و لا أنسى ديميتري الروماني الذي ترجم الفيلوكاليا الى الرومانية والذي نقلَها الى الرومانية فقامت نهضة هائلة في روسيا كما نراها في كتاب "سائح روسي على دروب الرب".

www.alsiraj.org السراج الأرثوذكسي

رغم كل الظروف والقساوات أتساءل لماذا الأرثوذكس متعلِّقون بكنيستهم تعلُّقاً عاطفياً يحتلُّ القلب والحواس؟

لماذا ستالين الطاغية الكبير كان يرتِّل في الكرملين حينما كان ينفرد (كما ذكر الكاتب الروسي سولجينستين)، لماذا في آخر حياته تناولَ القربان المقدّس؟ هذا الطاغية الذي كسر رأسَ هتلر كيف بقيَ يحِنّ الى الترتيل الأرثوذكسي والى المناولة؟ أكَّدَ لي العارفون بالأمر أن زوجة بريجينيف إستدعت كاهناً جنِّزه في القصر قبل أن يُخرَج الى الساحة الحمراء.

أمّا يوري أندروبوف فقد إنتفضَ إنتفاضةً عظيمةً أدّت الى صعود روسيا الى السماء من جديد.

كل هذا التعلُّق الأرثوذكسي بالكنيسة والإرتباط بالكنيسة له أسبابُه العديدة. ما هي هذه الأسباب التي تجعل القلب مشغوفاً بالأرثوذكسية؟ إنه نزول الأرثوذكسية الى القلب عن طريق الصلوات والترانيم والأشعار والموسيقى. كُتُب الصلوات الأرثوذكسية جسّدت الإيمان الأُرثوذكسي بكل نواحيه ولذلك في الصلوات يعيش الأرثوذكسي إيمانه الأرثوذكسي وكنيسته الأرثوذكسية.

www.alsirat.org السراج الأرثوذكسي

الكنائس المبنيَّة وفقاً للأصول الأساسية، كيف هي؟ أولاً، الفن المعماري يجعلها خاليةً من الصدى كما في دير القديس جاورجيوس في الحميراء في وادي النصارى، الصدى فيه مفقود لأن البناء بيزنطي أصيل. فاذن، يتمتّع الإنسان بالصلوات المسموعة جيداً.

البناء يقوم على اساسٍ جيد. هناك القبّة والأعمدة التي تَقسُم الكنيسة بشكل صليب. يدخل الإنسان الى كنيسة أورثوذكسية أصليّة، ككنيسةِ القديس مار اليان في حمص التي رفعها المرحوم الأب سوفيان الروماني على عهد المغبوط المطران الكسي الكبير. فيها القبّة مرسومة، وفيها المسيح الضابط الكل والرسل الإثنا عشر. الحيطان مزدانة بالفريسكات من كل النواحي، إنما الإيقونسطاس ليس إيقونسطاساً تاماً كما في اليونان ورومانيا وبلغاريا ويوغسلافيا وروسيا.

الايقونسطاس في الكنيسة هو روعة الروعات. يكون عالياً وممتلأً. يرى الإنسان أيقونات للرب يسوع، للعذراء مريم، للرسل ولسواهم من القدِّيسين.

www.alsiraj.org السراج الأرثوذكسي

في الهيكل نرى الرسوم على الحيطان وصورة التجسُّد الالهي في صدر الهيكل، أي العذراء وفي بطنها يسوع. المائدة العظيمة والمذبح والهيكل نفسه مرسوم بالفريسكات.

يدخل الإنسان الى الكنيسة فيرى السماء أمامه على الأرض. الرب يسوع، العذراء مريم، الرُسُل، القدِّيسون، الشهداء الأبرار والملائكة. كيفما نظرَ يرى السماءِ أمامَه. يعرف أن المائدة تُمثِّل القبرَ المقدَّس وأن المذبح يُمثِّل مغارة بيتَ لحم والجلجلة.

الصليب يعلو الإيقونسطاس.

خِدمة القداس الالهي للقديس يوحنا فم الذهب أو للقديس باسيليوس الكبير هي روعة الروعات. الإنجيل هو مُتجسّدٌ في خِدمة القداس في الكنيسة الأرثوذكسية. الصلوات في كتاب المعزِّي هي تجسِّد العقائد الأرثوذكسية في الثالوث القدوس، في التجسُّد الالهي، في ذكر العذراء مريم والشهداء والقديسين والملائكة ويوحنا المعمدان. فيه ايضاً كميَّة كبيرة من العقائد الأرثوذكسية والطروباريات، فطروباريات القيامة الرائعة تحوي خُلاصات عن العقائد المسيحية.

www.alsiraj.org السراج الأرثوذكسي

المسيحي الأرثوذكسي يعيش في هذا اليوم. فعلينا أن نُسبحِّك يا إلهنا ولو كنَّا في أتون النار. الفِتيَة الثلاثة سبِّحوكَ وهم في أتون النار. فإذن علينا أن نسبِّح الله ولو كنا في جهنِّم لا في أتون النار.

فيا أيها المؤمنون كونوا مثلَ الفتية الثلاثة وسبِّحوا الله أينما كنتم له المجد والإكرام والسجود الى أبد الآبدين ودهر الداهرين آمين.

www.alsiraj.org السراج الأرثوذكسي